[THE FALL OF THE LOWER MARCH/REGION OF AL-ANDALUS IN THE HANDS OF THE SPANIARDS]

سقوط الثغر الأندلسي الأدنى بيد الأسبان

Mamduh Manoukh Dyab al-Naif
mamdohm1983@yahoo.com
Jordanian Ministry of Education Directorate of Education Giza District

Ahmad Hani al-Qatawneh
ahmad.qatawneh@iu.edu.jo
Service Courses Department
Isra University PO Box 33 and 22 Isra University Office
11622 Queen Alia International Airport, Amman, Jordan

Abstract

This study deals with one of the critical topics in our Arab-Islamic history, which is almost unknown to us because some of our historical Arabic sources and references have ignored it, namely the fall of Islamic Andalusia to the Spanish and Portuguese Christians. This negligence may be ascribed to our Arab historians' focus on positive events highlighting the superiority and prosperity of Arabs and Muslims. In return, their oversight some of the adverse events that remained a stigma in Islamic history, and they only gave it scant attention without any elaboration. The study then addressed a stage of the fall of Andalusia, represented by the fall of the Lower Andalusian region and its base, the city of Badajoz, and then the rest of its district. To set the scene, the researcher deliberately talked first about the region's geography and the importance of its cities. He then spoke about the Kingdom of Portugal, which endeavored to extend its territory at the expense of this region. Next, he discussed the status of this region during its occupation by Banu al-Aftas (a Berber Miknasa dynasty centered in Badajoz (1022–1094) in al-Andalus, Moorish Iberia), Almoravids (an imperial Berber Muslim dynasty) and Almohads (North African Berber Muslim), and the role of each of these governors in fighting the Christians and defending the region against their attacks.

Keywords*: the fall, the region, Andalusia, Badajoz, the Spanish, the Islamic*

ملخص البحث

تناولت هذه الدراسة الحديث عن أحد المواضيع المهمة في تاريخنا العربي الإسلامي، الذي يكاد يكون مجهولا لنا بعض الشيء، بسبب إغفال مصادرنا ومراجعنا العربية التاريخية له، ألا وهو سقوط الأندلس الإسلامية بيد النصاري الأسبان والبرتغاليين، ويبدو أن إغفالهم لهذه الحقبة يعود إلى تركيز مؤرخينا العرب على الأحداث الإيجابية التي تبرز تفوق العرب والمسلمين وازدهارهم، وبالمقابل إغفالهم لبعض ما هو سلبي أو يمثل نقطة سوداء في صفحات التاريخ الإسلامي والمرور عليها مرور الكرام بذكرها فقط دون تفصيل. يهدف البحث الى الحديث عن مرحلة من مراحل سقوط الأندلس، تمثلت بسقوط الثغر الأندلسي الأدنى وقاعدته مدينة بطليوس ثم بقية أعمالها، وعمدنا قبل ذلك بالحديث عن جغرافية هذا الثغر وأهمية مدنه وحصانتها، ثم الحديث عن مملكة البرتغال، التي سعت لتوسيع أراضيها على حساب هذا الثغر، ثم الحديث عن وضع الثغر أثناء خضوعه لحكم بني الأفطس يليهم المرابطون ثم الموحدون، ودور كل منهم في محاربة النصارى وحماية الثغر من اعتداءاتهم.

كلمات مفتاحية: *سقوط، الثغر، الاندلس، بطليوس، الاسبان، الإسلامي*

Article Received:	Article Reviewed:	Article Published:
10 April 2023	30 September 2023	1 December 2023

المقدمة

تتناول هذه الدراسة الحديث عن أحد المواضيع المهمة في تاريخنا العربي الإسلامي، والذي يكاد يكون مجهولا لنا بعض الشيء، بسبب إغفال المصادر والمراجع العربية له، ألا وهو سقوط الأندلس الإسلامية بيد النصارى الإسبان والبرتغاليين، وولعل إغفالهم لهذه الحقبة يعود إلى تركيز مؤرخينا العرب على الأحداث الإيجابية التي تبرز تفوق العرب والمسلمين وازدهارهم، وإغفال ما يرونه سلبي في محطات التاريخ الاسلامي والاكتفاء بذكره مع عدم التركيز عليه.

تطرقت هذه الدراسة إلى مرحلة من مراحل سقوط الأندلس، تمثلت بسقوط الثغر الأندلسي الأدنى وقاعدته بطليوس ثم بقية أعمالها، وعمدنا قبل ذلك بالحديث عن جغرافية هذا الثغر وأهمية مدنه وحصانتها، ثم الحديث عن مملكة البرتغال، التي سعت لتوسيع أراضيها على حساب هذا الثغر، ثم الحديث عن وضع الثغر أثناء خضوعه لحكم بني الأفطس يليهم المرابطون ثم الموحدون، ودور كل منهم في محاربة النصارى، وحماية الثغر من اعتداءاتهم.

هدف البحث

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على واحدة من أهم محطات التاريخ الأسلامي. المتمثل بسقوط الأندلس بشكل عام. ويختص بسقوط الثغر الأدنى الاندلسي بيد النصارى.

المنهج

أعتمد الباحث منهج البحث التقليدي. في جمع المعلومات من مصادرها الاصلية. ومن المراجع الحديثة. وفي التقصي والبحث والتمحيص. للوصول إلى هدف الدراسة.

الدراسات السابقة

اعتمدت الدراسة على مصادر ومراجع تنوعت في تركيزها على حقبة الدراسة. وكان من أهم ادراسات التي استندت اليها الدراسة كتاب مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان، لمؤلفه محمد نايف العمايره. الذي يعتبر مرجعا اساسيا لدراسة تاريخ الاندلس

آواخر حكم المسلمين لها، وكذلك كتاب تاريخ بطليوس الاسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي. لسحر السيد عبد العزيز سالم. الذي ساعدنا للاستدلال على كثير من جوانب الدراسة، وفي حدود اطلاع الباحثين لم يجدا أي دراسة بحثية حول الموضوع.

أولا: جغرافية الثغر الأدنى الأندلسي

اعتدنا أن نجد في كتب التاريخ التي تتحدث عن المواقع والمدن، أنها تتناول في البداية الحديث عن جغرافية المنطقة المراد دراستها، وذلك لكي يتمكن القارئ من أخذ صورة واضحة عن موقع المنطقة وأهميتها، وسنتناول في هذا الفصل الحديث عن جغرافية الثغر الأدنى الأندلسي بداية بقاعدته بطليوس، ومن ثم بقية أعمالها.

أ. مدينة بطليوس

تعتبر هذه المدينة قاعدة للثغر الأدني الذي يشتمل على جميع أراضي البرتغال تقريبا، ويضم مدناً مهمة منها: ماردة، وأشبونة، وشنترين، ويابره، وشنترة، وقلمرية (Ibn al-Khatib, 1956).

وتقع بطليوس على الضفة اليمنى من نهر وادي آنه (al-Samarra'i, n.d.)، وكان هذا النهر يسمى الغؤور، لأنه كان يحمل السفن ثم يغور تحت الأرض حتى لا توجد منه قطرة (al-Idrisi, 1980). كما تتمتع بطليوس بموقع ممتاز ذي أهمية كبيرة من حيث وقوعها فوق ربوة عالية تشرف على كثير من المدن الأندلسية المجاورة لها (Salem, 2005).

ومدينة بطليوس مدينة جليلة في بسيط من الأرض، ولها ربض كبير أكبر من المدينة في شرقها (al-Idrisi, 1980)، وتبعد عن مصب وادي آنه مسافة ستين كيلو متراً(al-Amaeerah, 1999)، وقد حقق موقع بطليوس الحصانة والمنعة للمدينة، فبرزت بين صفحات التاريخ وكأنها في جملتها قلعة حصينة نعمت بموقع طبيعي منيع((Salem, A. (2005).

وهناك اختلاف بين المصادر حول إنشاء هذه المدينة، فالبعض يذكر أنها كانت موجودة قبل فتح المسلمين لها، والبعض يرد بناء هذه المدينة إلى العهد الإسلامي للمنطقة (Salem, 2005). وتذكر بعض المصادر أن بطليوس كان تابعة لإقليم ماردة (al-Humairi, n.d.)، ولم يول المسلمون هذه المدينة أية عناية حتى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وذلك لبروز أحد زعماء المولدين وهو عبد الرحمن بن مروان الجليقي الذي ثار على حكومة قرطبة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، فانحاز الجليقي إلى مدينة بطليوس سنة 241 / 877م، واستقل بها وأعاد بناء المدينة (al-Amaeerah, 1999). وكانت قبل ذلك موضعا قديما مهجوراً وخالياً (Salem, 2005)، وهذا يدلنا على أن موقع بطليوس كان موجودا قبل ذلك، وإنما كان عبارة عن خربة خالية من السكان، وأن الجليقي أعاد تعميرها وبناءها، ويذكر الحميري أن هذا الثائر المولدي دخل في طاعة الأمير عبد الله، فأمده الأمير بالمال والعمال من أجل إعمار المدينة (al-Humairi, n.d.).

وهكذا برزت مدنية بطليوس على مدينة ماردة من حيث الأهمية، وازدهرت وتطورت في عهد أبو مروان الجليقي وخلفائه من بعده، وبقيت مستقلة عن الخلافة الأموية حتى استطاع الأمير عبد الرحمن بن محمد افتتاحها سنة 1217 / 929م، بعد أن انتصر على عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي (al-Amaeerah, 1999).

ومن الأشعار التي تغنت بروعة وجمال مدينة بطليوس ما قاله الوزير أبو عمرو بن الفلاس (al-Maqri, 1988):

بطليوس لا أنساك ما اتصل البعد فلله غور في جنابك أو نجد
لله دوحات تحفك بينها تفجر واديها كما شقق البرد

ب. مدينة شنترين

من أهم مدن الثغر الأدنى، وتقع إلى الغرب من قرطبة على نهر التاجه وقرب مصبه بالبحر المحيط (al-Hamwi, n.d.). وتقع على جبل عال، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة، ولا يوجد لها أسوار، وبأسفلها ربض على طول النهر (al-Idrisi, 1980). وتذكر بعض المصادر أن هذه المدينة تقع في كور باجه (al-Idrisi, 1980). فيما يذكر البعض أنها من أعمال أشبونة (al-Maqqari, 1988). وقد بنيت هذه المدينة في العهد الروماني (al-Hajjaj, 2005).

تمتاز مدينة شنترين بشوارعها الطويلة وميادينها الكبيرة، وقسم من أحيائها تقع على سفح المنحدر (al-Hajjaj, 2005)، وتضم المدينة ثلاثة مراكز عمرانية: المركز الأول القائم بأعلى المرتفع وهو المدينة القديمة، أما الأخريان، فيقعان في أسفلها (Salem, 2005).

ويمدنا المراكشي في المعجب بوصف بليغ لجمال مدينة شنترين وحصانتها من خلال رسالة بعثها الوزير ابن عبدون إلى امير المرابطين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، يصف له روعة المدينة بعد فتحها على يد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين، قائلا،

وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها، واستولينا على أقطارها، أرحب المدن أمدا للعيون، وأخصبها بلدا في السنين، لا يرميها الخصب ولا يتخطاها، ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها، فروعها فوق الثريا شامخة، عروقها تحت الثرى راسخة، تباهي بازهارها نجوم السماء، وتناجي بأسرارها أذن الجوزاء، مواقع القطار في سواها مغبرة مربدة، وهي زاهرة ترف انداؤها، ومطالع الأنوار في حشاها مقشعرة مسودة، وهي ناضرة تشف أضواؤها، وكانت في الزمن الغابر، أعيت على عظيم القياصر، فنازلها بأكثر من القطر عددا، وحاولها بأوفر من البحر مددا، فأبت على طاعته كل الإباء، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصاء (al-Marrakushi, n.d.).

ج. مدينة لشبونة (اشبونة)

تقع على شمال نهر تاجه، وهو نهر طليطلة وسعته أمامها ستة أميال (al-Idrisi, 1980)، ويذكر الحموي أنها متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط، وهي على مصب نهر شنترين، ويقال لها لشبونة (al-Hamwi, n.d.)، ويذكر الحميري أنها من كور باجه المختلطة بها (al-Humairi, n.d.)، ويعود بناؤها إلى العصر الروماني حيث كانت تسمى (اليسيبو) (al-Amaeerah, 1999). وهي مدينة قديمة على سيف البحر تنكسر أمواجه في سورها وأسمها قوديه (al-Humairi, n.d.).

ويقدم لنا الحميري وصفاً عن سور المدينة وأبوابها قائلا،

وسورها رائق البنيان بديع الشأن، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام، وهو أكبر أبوابها، ولها باب غربي أيضا يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان في البحر، ولها باب قبلي يسمى بباب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده، وترتفع في سوره ثلاث قيم، وباب شرقي يعرف بباب الحمة، وباب شرقي أيضا يعرف بباب المقبرة (al-Humairi, n.d.).

وهي مدينة حسنه وجميلة ممتدة مع النهر ولها سور وقصبة منيعة (Al-Amaeerah, N. (1999).)، وتقع القصبة على أكثر جوانب الجبل ارتفاعا بحيث تشغل هضبة المرتفع (Salem, 2005).

د. مدينة يابره

وهي مدينة من كور باجة بالأندلس (al-Humairi, n.d.) وكانت من أعمال مدينة ماردة (al-Maqqari, 1988)، وهي مدينة قديمة جدا ترجع إلى العهد الروماني، وتقع بالقرب من مدينة بطليوس وجنوب غربي لشبونة، وتكثر فيها المحاصيل الزراعية وغابات الزيتون (al-Hajjaj, 2005).

ويشير الإدريسي إليها باسم يبورة قائلا،

ويبورة مدينة كبيرة عامرة بالناس، ولها سور وقصبة ومسجد جامع وبها الخصب الكثير الذي لا يوجد بغيرها من كثرة الحنطة واللحم وسائر البقول والفواكه، وهي أحسن البلاد بقعة وأكثرها فائدة والتجارات إليها داخله وخارجة ومن مدينة يبورة إلى مدينة بطليوس مرحلتان في شرق (al-Idrisi, 1980).

هـ. مدينة ماردة

تعتبر ماردة من أعظم مدن غربي الأندلس، وكانت حاضرة غربي الأندلس قبل دخول المسلمين إليها، ثم أخذت أهميتها تتراجع تدريجياً وحلت محلها في الأهمية مدينة بطليوس، وأصبحت ماردة من أعمالها (al-Amaeerah, 1999)، وتقع إلى الشمال من نهر وادي يانه (al-Hajjaj, 2005)، وهي من بناء أغسطس قيصر أسسها في عام 24 ق.م، وحظيت منذ ذلك الحين بعناية الحكام والملوك (Salem, 2005).

وكانت ماردة دار للملكة ماردة بنت هرسوس الملك (al-Idrisi, 1980)، وهي من إحدى القواعد التي تخيرها الملوك للسكن من القياصرة والروم (al-Hamwi, n.d.)، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً (al-Idrisi, 1980).

وكانت مدينة عظيمة البناء وصفها لنا الإدريسي وصفا كاملا. فيصف لنا أسوارها وقناطرها وأقواسها، وتحدث عن النظام الذي يتم فيه جلب الماء إلى المدينة وغيرها من الآثار (al-Idrisi, 1980). وكانت كثيرة الرخام عالية البنيان (al-Hamwi, n.d.).

وتعتبر مدينة ماردة السد المنيع لمدينة بطليوس من جهة الشرق، لذلك كان سقوط بطليوس مرهونة بسقوطها، وهذا ما حصل فعلا (Salem, 2005).

ثانيا: مملكة البرتغال

كان يطلق على البرتغال اسم لوزيتانيا، وموقعها في غربي شبه الجزيرة البرينية فيما بين مصب نهر يانه ومصب نهر دويرة. وحكمها الرومان، ثم هاجرت إليها بعض القبائل الجرمانية كالشوابيون والآلان والوندال، واضمحل سلطان الرومان في المنطقة، واستطاع الشوابيون أن يبسطوا حكمهم على لوزيتانيا كلها، ولكنهم ما لبثوا أن تراجعوا إلى جبال جيليقية بفعل ضغط القوط عليهم، ولما انهار سلطان الدولة الرومانية الغربية، استولى القوط على إسبانيا كلها، وكذلك لوزيتانيا حتى مصب نهر دويرة، وبقي الشوابيون في قسمها الشمالي حتى ضمت مملكتهم إلى مملكة القوط في أواخر القرن السادس الميلادي، فشكلت لوزيتانيا أحد الأقاليم الستة التي شكلت منها المملكة القوطية، ويعرف باسم عاصمتها ماردة الفتح الإسلامي (Ashbakh, 1958).

ومن المدن المهمة التي كانت تابعة للبرتغال، قلمريه، ولشبونة، وشنترين، وشلب وباجه، وقد دخلت جميعها تحت الحكم الإسلامي في عهد موسى بن نصير (al-Amaeerah, 1999)، ولما انهارت الدولة الأموية في الأندلس، قامت في جنوب لوزيتانيا، التي عرفت باسم الغرب أي (غربي الأندلس)، مملكة بني الأفطس وعاصمتهم بطليوس، فشمل حكمهم منطقة وادي آنه، وجزء من مصب نهر التاجه، أما أرض لوزيتانيا الواقعة بين نهر دويرة ومونديجو وإلى ما بعد قلمريه، فكان الملك فرديناند قد انتزعها من المسلمين، وجعلها ولاية مستقلة باسم البرتغال، وانتدب لحكمها الكونت زيزناندوس، ثم ضمت إلى مملكة جليقية، وحكمها غرسيه الابن الأصغر لفرديناد، وبعد وفاة فرديناد، بسط سانشو الابن الأكبر لفرديناد، سيادته على مملكتي أخويه، غرسية والفونسو، ولكنه ما لبث أن توفي، وسيطر أخيه الفونسو على الممالك الثلاث، وعهد بالدفاع عن البرتغال إلى كونت من أسرة الدوق مننوس (Ashbakh, 1958).

وبعد ذلك عين الفونسو السادس الكونت ريموند البرجواني حاكماً لولاية البرتغال، وذلك تقديراً لجهوده التي أظهرها في محاربة المسلمين، وخاصة في البرتغال، إلا أن الكونت ريموند تنازل عنها سنة 486هـ، إلى ابن عمه الكونت هنري البرجواني، فاراد الفونسو السادس أن يقرب هذا الكونت فزوجه ابنته غير الشرعية تيريزا، وقد كان حكام إمارة البرتغال من نسل هذا الكونت وزوجته تيريزا (Ibn al-Khatib, 1956). واتخذت قلمرية حاضرة للإمارة ولكنها لم تكن إمارة مستقلة، وإنما خاضعة لمملكة قشتاله تؤدي الجزية لها، وأقر الفونسو السادس في وصيتة إمارة هنري على البرتغال، ووراثة عقبه لها، ولكن هذا الكونت توفي ولم يترك سوى طفل في الثالثة من عمرة يدعي الفونسو، فتولت أمه الدونا تيريزا الحكم بالوصاية عليه (Ashbakh, 1958).

أصبحت الدونا تيريزا حاكمة للبرتغال 1112م، وكانت تتمتع بصفات الذكاء والعزم والإقدام، بل وشجاعة الرجال في ميدان الحرب، الأمر الذي مكنها من السيطرة على زمام الأمور، ومواجهة الصراعات والمنازعات على العرش ودرء خطر عدوها المشترك قشتاله والمرابطون (Ashbakh, 1958).

أما ابنها القاصر الفونسو هنريكيز، فأنه ما أن بلغ الرابعة عشرة من عمره حتي اتصف بصفات الفروسية، والذكاء والفطنة، وغيرها من الصفات التي تؤهله لأن يتولى شؤون الحكم بنفسه، وكانت شخصيته محبوبة لدى الشعب، يضاف إلى ذلك احترامه لرجال الدين (Ashbakh, 1958).

وتمكن الفونسو هنريكيز وبمساعدة الأشراف والأحبار من الثورة على والدته التي لم تتنازل له عن العرش مع أنه بلغ السن القانونية، فنشبت بينها حرب انتهت لصالح الابن ووضع الأم في السجن، فتولى الابن حكم الإمارة سنة 521هـ / 1128م (Sheikha, 2001).

ويعد ذلك بعامين توفيت الأم تيريزا (1130م)، فاستقر الأمر لالفونسو هنريكيز حين اجتمعت بذلك كلمة جميع الأحزاب حوله (Ashbakh, 1958)، وحاول البرتغاليون في الأندلس تجسيم مملكتهم الناشئة بالتخلص من التبعية لقشتالة ومن هيمنة البابا عليها في نفس الوقت، فدخل في عدة صراعات مع مملكة ليون، كان أغلبها لصالحة، تمكن بعدها من أن يعقد صلحا مع صهره فرناندو الثاني ملك ليون ويطمئن على حدود مملكته الشمالية (Sheikha, 2001).

وفي سنة 534هـ / 1139م، تمكن الفونسو هنريكيز من إلحاق هزيمة نكراء بولاة غرب الأندلس من المسلمين مجتمعين، في معركة (أوريكا)، وفي نهاية هذه المعركة وقع تصميم العلم البرتغالي بدروعه الخمسة على شكل صليب، وبويع هنريكيز ملكا للبرتغال، وفي سنة 538هـ / 1143م، انعقد المجلس الوطني البرتغالي في جلسة تاريخية بمدينة (لاميجو)، ووضع أساس دستور مملكة البرتغال، وصادق الملك على القوانين التي قدمت له، وتعلقت بوراثة العرش ووضع الأشراف وإقامة العدل، وبذلك تجسم استقلال المملكة على أرض الواقع وبصفة رسمية وقانونية وعلى رأسها الملك هزيكيز (Ashbakh, 1958).

مع ان البابا تردد في الاعتراف باستقلال البرتغال عن قشتالة، إلا أن القرار البابوي المتعلق بالاستقلال صدر في سنة 1179م، من البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوي، معلنا استقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون، ومنح الفونسو هنريكيز لقب الملك، فكان أول ملك للبرتغال (Ibn al-Khatib, 1956).

عمل هذا الملك على توسيع حدود مملكته على حساب الأراضي الإسلامية في الجنوب الغربي (al-Amaeerah, 1999)، وأصبحت حدود مملكته تمتد بين نهري مينو ومنديجو إلى ما وراء نهر التاجة والعاصمة لشبونة (al-Amaeerah, 1999). وتوفي الفونسو هنريكيز بعد حكم طال نصف قرن في السادس من ديسمبر 1185م. في السادسة والأربعين من عمره (Ashbakh, 1958)، وتولى الحكم بعده عدة ملوك عاصروا الوجود الإسلامي في غرب الأندلس وهم (Ashbakh, 1958).

أ. سانشو الأول الملقب بالمعمر (580هـ - 607هـ / 1185م – 1211م)، وزاد نشاطه ضد المسلمين، واسترجع بعض الحصون على الحدود وأسكنها بالنصارى.

ب. الفونس الثاني الملقب بالبدين (607هـ - 619هـ / 1211م - 1223م)، وكان اهتمامه منصبا في القيام بالإصلاحات الداخلية والنظم العامة.

ج. سانشو الثاني الملقب بذي الثوب الكهنوتى (619هـ - 642هـ / 1223م - 1245م)، الذي كسب نفوذ رجال الدين إلى جانبه، وسوى الخلافات مع ملك قشتالة وليون، وتفرغ لقتال المسلمين واسترد بعض المناطق المحاذية لمملكته، وقد خلع بقرار بابوي، ونصب محله أخيه الفونسو، وكانت وفاة سانشو الثاني سنة 646هـ /1248م.

د. الفونسو الثالث الذي لم يتخذ لقب الملك إلا بعد وفاة أخيه سانشو، فاستغل ضعف جانب المسلمين واستمر في الاعتداء على أراضيهم، وفي عهده سقطت مدن الثغر الأدنى كلها بأيدي البرتغاليين.

ثالثا: حكم بنو الأفطس للثغر الأدنى

بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة 422هـ، فقدت الأندلس وحدتها وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة أطلق عليها المؤرخون اسم (دويلات الطوائف) ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف (Ibn al-Khatib, 1956)، وهكذا استمر قيام كيانات سياسية متوسطة المساحة في مدن بطليوس وطليطلة وسرقسطة، المنتشرة في الثغور الثلاثة: الأدنى والأوسط والأعلى، وكانت تعاني مرارة الصراعات والحروب فيه، فيما بينها، ولهذا غدا تاريخ هذه الحقبة شديد التعقيد والغموض (Watt, 1998).

ويمكن أن نقسم ملوك الطوائف من الناحية الاجتماعية إلى أربعة فئات: الأولى من العرب، والثانية من موالي بني أمية، والثالثة ممن ينتمون إلى الحزب العامري، أي بقايا أسرة المنصور ابن أبي عامر، والفئة الرابعة وفيها موضوع دراستنا هذه، هي فئة البربر، الذين استقروا في الأندلس منذ أول أيام الفتح، واندمجوا في المجتمع الأندلسي حتى لم يعد هناك ما يميزهم عنه وإن ظلوا محتفظين بأنسابهم القديمة، ويلاحظ أن بعضهم اصطنعوا لأنفسهم انساباً عربية مما يدل على مدى ذوبانهم في المجتمع الأندلسي، مثل بني الأفطس ملوك بطليوس وغرب الأندلس، وأصولهم من بربر مكناسه، ولكنهم كانوا ينتسبون إلى قبيلة تجيب العربية (al-Idrisi, 1980).

وقبل ذلك لما فقدت الأندلس وحدتها وانفرد كل أمير بما في يده من البلاد، فإنه كان يحكم بطليوس وجميع أعمالها رجل من موالى الحكم المستنصر بالله وهو من الفتيان العامريين يسمى سابور الفارسي، فانفرد بحكم الثغر الأدني، وتلقب بالمنصور، وقد استمر في حكمها ثلاثة عشر عاما، تميز بالشجاعة لكنه لم يكن على دراية تامة بأمور الحكم، فكان يساعده في إدارة أمور الحكم وزيره المعروف بأبي محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبي الملقب بابن الأفطس (al-Shantarini, n.d.)، ويذكر المؤرخ الألماني أشباخ أن الفتي سابور تولى منطقة غربي الأندلس في عهد هشام المؤيد (الثاني)، وأن سابور عهد بولاية مارده إلى عبد الله بن الأفطس (Ashbakh, 1958).ولما توفي سابور سنة 408هـ، وكان قد ترك ولدين قاصرين استغل ابن الأفطس الوضع، وحكم المنطقة باسمه وجعلها لبنيه من بعده[1] (Ibn Idhari, 1983).

أ. عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس (408هـ - 437هـ / 1017م - 1045م)

أصله من قبائل مكناسة المغربية، من منطقة فحص البلوط شمال غربي قرطبة، من أسرة لم تعرف بالنباهة والسياسة والدهاء (Salmaa, n.d.). إلا أن عبد الله هذا قد تميز عنهم بوافر من الدهاء والسياسة والحزم (al-Amaeerah, 1999).

ولما انفرد بالحكم وأخذه من أبناء سابور هربوا إلى مدينة لشبونة واستقلوا بها عن ابن الأفطس، واستطاعوا أن يشكلوا حزب معارضة له، وقاموا بالثورة عليه، محاولين استعادة ملكهم، لكن وفاة أكبرهم عبد الله، حالت دون ذلك أو أضعفت موقفهم، ولان الابن الأصغر عبد الملك كان ضعيفاً لا يصلح للحكم، فقد قام أهل لشبونة بخلعه وأرسلوا إلى عبد الله بن الأفطس سرا يطلبون أن يرسل إليهم والياً عليهم بدل ابن سابور (Ibn Idhari, 1983).

أرسل عبد الله ابن الأفطس ابنه محمد على رأس جيش إلى مدينة لشبونة فدخلها فجأة، فوجد ابن سابور نفسه محاصراً، فطلب الأمان من الوالي الذي بعثه محمد بن الأفطس، وبسبب وجود مصاهرة بين الوالي وابن سابور حيث إن زوجة الوالي هي

[1] يذكر اشباخ ان عبد الله بن الأفطس قد تلقب بالمنصور وهذا يخالف ما تورده المصادر العربية في أن الذي تلقب بالمنصور هو الفتى سابور، انظر: Ashbakh, 1958: 38.

أخت لابن سابور، فقد أعطاه الأمان وسمح له بالخروج بأمواله وأهله، فخرج إلى قرطبة وأمضى بها بقية حياته (al-Amaeerah, 1999).

وهكذا استقر الأمر لبني الأفطس في حكم الثغر الأدنى، وعمل عبد الله بن الأفطس على تقوية دولته ومواجهة أخطار جيرانه النصارى وملوك الطوائف وخاصة بنو عباد (al-Amaeerah, 1999)، وتوفي عبد الله بن الأفطس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة 437هـ / 1045م، وخلفه ابنه محمد (Ibn Idhari, 1983)

ب. المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الأفطس (437هـ - 461هـ /1045م - 1068م)

تولى هذا الأمير الحكم بعد وفاة والده، وكان أديباً وعالماً وفارساً شجاعاً، اهتم بالأدب كثيراً، وله مؤلف كبير يسمى (المظفري) يقع في خمسين مجلدا، ولم تشغله حروبه وشؤون إمارته عن الاهتمام بالأدب (al-Shantarini, n.d.). ومع ذلك فقد استطاع أن يسير دفة الحكم في إمارته على أحسن وجه منظم أمورها، وضبط النظام فيها، فأصبح ملكه عظيما (al-Amaeerah, 1999).

انشغل المظفر بن الأفطس في قتاله مع ملوك الطوائف، على رأسهم ابن عباد (Ibn Idhari, 1983)، وكذلك خلافاته مع المأمون صاحب طليطلة (al-Amaeerah, 1999)، ولقد تسببت هذه الحروب الداخلية بين الأمراء المسلمين إلى أضعاف جانبهم وأنهاك قواهم العسكرية وإزهاق آلاف الأرواح (al-Samarra'i, 1985).

أدى هذا الوضع إلى طمع النصارى في التوسع على حساب الأراضي الإسلامية، واستغلال الموقف الذي كان لصالحهم، وعلى رأس هولاء النصارى، ملك قشتاله وليون فرديناند الأول، الذي يعتبر من أقوى ملوك النصارى في تلك الفترة (al-Amaeerah, 1999). وكان نتيجة ذلك سقوط مدينة قلمرية بيد النصارى على يد فرديناند الأول سنة 456هـ، وخضعت لحكم المسلمين حوالي ثمانين عاماً، وكان قد افتتحها المنصور بن أبي عامر 375هـ (Ibn Adhari, 1983) ولم ينته ضغط النصارى على أراضي ابن الأفطس إلا بوفاة فرديناند سنة 458هـ، (Ibn al-Khatib, 1956) وفي سنة 461هـ، توفي المظفر بن الأفطس وخلفه ولداه يحيى وعمر (al-Shantarini, n.d.).

تولى يحيى الحكم واتخذ لقب المنصور، وبقي أخوه عمر حاكما لمدينة يابره وما عليها، ولكن عمر كان يعتبر نفسه أحق بالعرش من أخيه، فاختلفا على ذلك، وعظم بينهما النزاع، واستغل الفونسو السادس هذا النزاع وزاد من نيران الفتنة بين الأخوين، وأصبح الثغر الأدنى عرضة لهجمات النصارى، ولجا يحيى إلى حليف أبيه القديم المأمون بن ذي النون، ومال أخوه عمر إلى المعتضد، وبقيت نيران الفتنة مضرمة بينهما إلى أن توفي يحيى المنصور فجأة سنة 646هـ فخمدت الفتنة، واستقر أمر بطليوس الى عمر المتلقب بالمتوكل (al-Shantarini, n.d.).

ج. المتوكل عمر بن محمد بن عبد الله بن الأفطس (464هـ - 488هـ / 1072م - 1095م).

كان المتوكل من أهل الرأي والحزم والبلاغة، واستعادت بطليوس في عهده هيبتها وقوتها، فجند لها الجنود، وكانت بطليوس في عهده دار أدب وشعر ونحو وعلم (Ibn al-Khatib, 1956).

ومن أهم الأحداث في عهده هو سيطرته على مملكة طليطلة حوالي عشرة أشهر من عام 473هـ / 1080م، عندما ثارت طليطلة على حاكمها القادر بن ذي النون (Ibn al-Kardabous, 1966)، إلا أن القادر استعان بالفونسو السادس ملك قشتالة وعاونه في استرجاع عرش طليطلة (Ibn al-Kardabous, 1966). وغادر المتوكل بن الأفطس المدينة بعد أن شعر بالخطر القادم إليه وذلك في عام 474هـ / 1081م (al-Samarrai, 1985) وفي عهد المتوكل سقطت مدينة طليطلة على يد الفونسو السادس وذلك في سنة 478هـ(al-Samarra'i, 1985)، وكان لسقوطها أثر كبير في بقية دول الطوائف بما فيها بطليوس (al-Amaeerah, 1999).

وبرزت قوة الفونسو السادس كقوة مسيطرة ليس لأحد من ملوك الطوائف قبل بها، فأصبح هذا الخطر يهددها جميعا، ويرى في نفسه أنه قادر على القضاء على دول الطوائف جميعها، ولذلك بادر بعض أمراء الأندلس إلى استرضائه وتهنئته على إنجازاته وحمل إليه بعضهم الهدايا بنفسه وعرضوا عليه أن يكونوا عمالا له (Ibn al-Kardabous, 1966).

قام الفونسو بالضغط على المدن المجاورة له وهي بطليوس وأشبيلية فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس يتوعده ويطلب منه تسليم بعض الحصون وتأدية الجزية، ولكن المتوكل رفض جميع ما طلب، ودعا أمراء الأندلس إلى الوحدة لمواجهة الخطر لكنه لم ينجح (al-Amaeerah, 1999)، عندها قرر المتوكل الاستنجاد بالمرابطين فكتب إلى يوسف بن تاشفين يصور له محنة الأندلس ويستنصره (Ibn al-Kardabous, 1966).

رابعا: الثغر الأدنى الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين

أ. عهد المرابطين

ما إن وصلت استغاثة أمراء الأندلس إلى ابن تاشفين حتى تجهز بنفسه للعبور إلى الأندلس سنة 479هـ[2] (al-Marrakushi, n.d.)، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة له، وتقدم منها نحو اشبيلية، والتقى مع الفونسو السادس ملك قشتالة في الزلاقة قرب بطليوس يوم الجمعة، 12 رجب 479هـ/ تشرين الأول 1086م، انهزمت فيها قوى الأسبان والأوروبيين (Baydoun, n.d.).

وكان من أبرز نتائج معركة الزلاقة: أنها كسرت شوكة الفونسو السادس، وأعادت الروح المعنوية لأهل الأندلس، ووحدت المغرب والأندلس تحت راية المرابطين (Baydoun, n.d.)، وهذا ما سنجده لاحقا.

رجع يوسف ابن تاشفين بعد هذا النصر إلى المغرب، لكنه ما لبث أن عبر إلى الأندلس مرة أخرى بعد استنجاد ابن عباد وبعض فقهاء الأندلس به مرة أخرى، وذلك في ربيع الأول 481هـ، واستطاع التخلص من خطر النصارى في حصن أليط دون الدخول في معركة حاسمة (Baydoun, n.d.). وعاد ابن تاشفين في هذه المرة إلى المغرب ولكن تجربته هذه كانت أكثر مرارة من سابقتها التي اقترنت بالنصر، وكان حانقا على أمراء الطوائف (Baydoun, n.d.) مرارة هذه التجربة جعلت ابن

[2] يذكر ابن الكرنبوس آن عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس كان في سنة 480هـ (Ibn Kardabus, 1966: 90; al-Marrakushi, n.d.: 118-120).

تاشفين يعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة وبدعوة من الفقهاء سنة 483هـ، وهوعاقد العزم على السيطرة على البلاد بصورة فعلية (Baydoun, n.d.).

لم يضع يوسف بن تاشفين وقتا لتنفيذ ما عزم عليه، فاحتل غرناطة من دون قتال قبل نهاية العام 1090م، وفي آذار من العام 1091م سقطت قرطبة، ثم حاصر إشبيلية وانتهى باستسلام المدينة وأميرها المعتمد في شهر أيلول، ودخل في طاعته العديد من المدن، وكانت المراحل الأكثر أهمية سقوط بطليوس عام 1094م، وبلنسية عام 1102م، وسرقسطة عام 1110م إلا أن المرابطين عجزوا عن استعادة طيلطلة (Watt, 1998). وهكذا خضعت الأندلس لحكم المرابطين المباشر، باستثناء سرقسطة التي احتفظ بالسلطة فيها بني هود بالاتفاق مع ابن تاشفين (Baydoun, n.d.).

كان القائد المرابطي سير إبن أبي بكر يقتحم غرب الأندلس، فبعد أن استولى على اشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها أبو محمد المتوكل عمر بن الأفطس واستولى على شلب ويابرة، وواجهه المتوكل وأولاده، لكن الشعب كان يؤثر تغيير الحكومة، وتراجع المتوكل إلى قصبة بطليوس وتحصن بها، إلا أن أهلها حملوه على أن يفاوض المرابطين في تسليمها، وقبض على المتوكل وولديه وقتلوا، واسر ابنه الأصغر، وهكذا انتهى سلطان بني الأفطس في بطليوس في شهر صفر سنة 487هـ / 1094م (Ashbakh, 1958).

بقي حكم المرابطين للأندلس حتى عام 541هـ / 1147م (Baydoun, n.d.)، ولعبوا دوراً مهماً في حماية الثغور الأندلسية من الخطر النصراني الإسباني وخاصة ضد مملكة البرتغال المحاذية للثغر الأدنى والتي يبدو أنها مرت على مرحلتين:

1. المرحلة الأولى (483هـ – 533هـ). وفي هذه المرحلة اتخذت القوات المرابطية من مدينة بطليوس قاعدة عسكرية تخرج منها الحملات الجهادية ضد الشمال إلى أراضي مملكة البرتغال واستطاعت استرجاع بعض المدن من سيطرة الأسبان ومن أهمها: يابرة وأشبونة وشنترين وذلك في عام 505هـ / 1112م، ومدينة قلمرية عام 511هـ / 1117م.
2. أما المرحلة الثانية 533هـ - 542هـ، فقد تم الصلح بين ملك قشتالة وملك البرتغال عام 533هـ، فوجه ملك البرتغال جهوده من أجل السيطرة على بعض المدن الأندلسية المحاذية لمملكته، فتصدى للقوات المرابطية في غربي الأندلس وانتصر عليها في موقعة (أوريك) على ضفة نهر التاجة، كما استغلت البرتغال ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فسيطرت على مدن شنترين وباجه ومارده واشبونة، وبذلك تكون استرجعت معظم المدن التي استردها المرابطون في المرحلة الأولى ((Baydoun, I,n.d.)).

إلا أن المرابطين لم يتمكنوا من درء الخطر المحدق بقاعدة الثغر الأعلى مدينة سرقسطة، والتي سقطت في يد الأسبان عام 512هـ / 1118م (Anat, 1964)، وكانت بداية التراجع للنفوذ المرابطي، وانشغل المرابطون بأحداث الأندلس، ومن ثم حركة المعارضة التي ظهرت ضدهم في المغرب بقيادة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين، التي قوضت سلطان المرابطين، فدخل الموحدون مراكش سنة 541هـ، وورثوا الدور المرابطي في المغرب والأندلس (Baydoun, n.d.).

ب. عهد الموحدين

تمكن زعيم الموحدين المهدي بن تومرت من تقويض الوجود المرابطي في المغرب العربي والقضاء عليه نهائياً، وبعد أن توفي المهدي سنة (542هـ) فتولى قيادة الموحدين أحد رجاله وهو عبد المؤمن بن علي، الذي اثبت جدارته وتمكن بعدها بعشر سنوات من السيطرة على المغرب (Baydoun, n.d.).

لم يكن عبد المؤمن غافلاً عن أهمية الأندلس، وخرج يريد الأندلس، وعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق، وأطلق عليه اسم جبل الفتح، وأقام به أشهرا، ووفد عليه وجوه أهل الأندلس للبيعة، واجتمع له منهم عدد كبير (al-Marrakushi, n.d.)، كما اشرف على عمليات عسكرية في الجهات الغربية من الأندلس، المهددة بقيام مملكة مستقلة فيها هي البرتغال، كما اعد في هذا السبيل أسطول كبير والآف المجاهدين، ولكن عبد المؤمن لم تتح له الفرصة لتنفيذ خططه، حيث وافته المنية وتولى بعده الأمر ابنه يوسف الملقب بابي يعقوب (558هـ - 580هـ) (Baydoun, n.d.).

لم ينفذ أبو يعقوب خطة أبيه، وفي عهده كانت ثورة ابن مردنيش في إشبيلية، ولكن موته في سنة (1172م) جعلت خلفائه يسلمون اشبيلية الموحدين، كما حاصر أبو يعقوب طليطلة ولكنه تراجع عنها، ويبدو أن عهده شهد سيطرة فعالة للموحدين على أكثر أجزاء الأندلس. كما استطاع أن ينقل الجهاد إلى أرض العدو (Watt, 1998)، كما عبر هذا الخليفة إلى الأندلس في عام 580 هـ واتجه صوب مدينة شنترين ونازلها في عدة معارك وقرر الانسحاب، وأصيب في المعركة (al-Marrakushi, n.d.) وتوفي في عام 580هـ / 1184م (al-Samarra'i, n.d.).

تولى الخلافة بعده ابنه أبو يوسف يعقوب ولقب بالمنصور (al-Marrakushi, n.d.)، نظم أمور دولته وعبر إلى الأندلس عام 586هـ / 1189م، لرد اعتداءات ملك البرتغال شانجه الأول الذي سيطر على مدينة شلب بمعاونة قوات صليبية من البحر، وكان ذلك في عام 585هـ / 1189م، واستطاع خليفة الموحدين بعد معارك جهادية استرجاع مدينة شلب وبعض الحصون (al-Samarra'i, n.d.).

وفي عام 590هـ كانت معركة الارك الشهيرة قرب قلعة رباح بين الفونسو الثامن ملك قشتالة والمنصور الموحدي انتهت بهزيمة الفونسو فكانت أختاً لهزيمة الزلاقة، ودخل أمير المسلمين قلعة رباح، واستولى على ما حول اشبيلية من الحصون ثم رجع إلى اشبيلية (al-Marrakushi, n.d.).

في عام 595هـ توفي أبو يوسف المنصور، وخلفه ابنه الناصر لدين الله (595هـ - 610هـ)، كان أهم حدث في عهده هو موقعه العقاب سنة 609هـ / 1212م (6)، والتي هزم فيها الموحدون بقيادة الناصر أمام الفونسو الثامن ملك قشتالة وتشتت جيش الموحدين (al-Samarra'i, n.d.).

توفي الناصر الموحدي سنة 610هـ / 1213م، وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الثاني وتلقب بالمستنصر بالله (al-Marrakushi, n.d.)، وخسر الموحدونفي عهده قصر أبي دانس، وتوفي المستنصر هذا فجأة دون عقب عام 620هـ / 1224م وخلفه عبد الواحد عم أبي المستنصر الذي خلع بعد عدة أشهر، وتمت مبايعة عبد الله الملقب بالعادل (621هـ - 624هـ) ثم تلته بيعة أخيه المأمون (624هـ - 629هـ) ثم بيعة ابنه الرشيد (629هـ - 640هـ) وهذا التبدل السريع في تنصيب الخلفاء تبعه اعتداء ملوك إسبانيا على الأراضي الأندلسية وسيطرتهم على الكثير من المدن والحصون (Baydoun, n.d.).

خامسا: سقوط الثغر الأدنى بيد الأسبان

تحدثنا في الفصل الأول من هذه الدراسة عن الموقع الجغرافي لقاعدة الثغر الأدنى مدينة بطليوس وأهم أعمالها وسنتحدث في هذا الفصل عن سقوط هذه المدن بيد النصارى.

أ. مدينة شنترين

كانت هذه المدينة محط أنظار ملوك النصارى بسبب موقعها الحصين فحاول النصارى احتلالها أكثر من مره، فقد أرسل الملك فرديناند الأول ابن شانجه، سرية بقيادة أحد رجاله للاستيلاء عليها، ويبدو أن الملك فردناند طلب الجزية من المظفر، إلا أنه رفض دفع الجزية، فسار النصارى إلى مدينة شنترين، إلا أن المظفر بن الأفطس سبقهم إليها وتحصن بها، فتابع النصارى سيرهم إليها، ووجدوا أن دخول المدينة أمر صعب، فأرسل قائد النصارى إلى ابن الأفطس يدعوه للمفاوضة، واجتمع الاثنان في نهر التاجة، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح وأن يدفع المظفر لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة الاف دينار، ولعل هذه الهدنة كانت في عام 455هـ / 1063م (Ibn Idhari, 1983).

وسقطت شنترين مرتين بيد الأسبان، المرة الأولى عام 486هـ / 1093م، عندما استولى عليها الفونسو السادس بعد أن تنازل المتوكل بن الأفطس له عنها على أن يساعده الفونسو في مواجهة الخطر الذي يهدد دولته وهم المرابطون، الذين اسقطوا حكمه بمساعده أهل الثغر (Ibn al-Khatib, 1956) إلا أن المرابطين استردوها واستمر حكمهم بها فترة طويلة (al-Hajjaj, 2005).

وبعد أن نشأت مملكة البرتغال، أصبحت تمثل الخطر الأكبر على القواعد الأندلسية في الغرب، وأخذ ملكها الطموح الفونسو هنريكيز يعمل على توسيع مملكته على حساب الأراضي الإسلامية المحاذية له من الجنوب، وسنحت له الفرصة في احتلال شنترين عند نهاية عهد المرابطين وبداية ظهور الموحدين، حيث كثرت القلاقل والفتن في الأندلس الإسلامية، فاستغل الفونسو هنريكيز الوضع، واسقط مدينة شنترين للمرة الثانية عام 542هـ / 1147م، ولم تعد بعدها إلى الحضيرة الإسلامية (al-Samarra'i, n.d.).

وقد جرت عدة محاولات لاسترجاعها من أيدي النصارى دون فائدة، ومن هذه المحاولات قيام مجموعة من جيش الموحدين المقيمين في اشبيلية وعددهم يقارب خمسمائة فارس بمحاربة مجموعة كبيرة من جيش النصارى المقيمين في المدينة، فانتصروا عليهم ولكنهم لم يستطيعوا دخول المدينة (al-Amaeerah, 1999).

كما سعي الموحدون بعد أن تمكنوا من إيقاف تقدم البرتغاليين في أراضيهم لاسترداد المدن المفقودة، وحاصروا مدينة شنترين بجيش ضخم سنة (1171م – 567هـ)، ولكن الفونسو هنريكيز ملك البرتغال نجح في إرغام المسلمين على رفع الحصار عن المدينة، وهزمهم هزيمة فادحة (Ashbakh, 1958).

وحاول الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف أيضا استرجاع مدينة شنترين سنة 580هـ / 1184م، وحاصرها أيام عده، إلا أن الخليفة أمر بالانسحاب فجأة، ثم جرح أثناء الحصار وتوفي بعد أيام قليلة (Watt, 1998).

ب. مدينة لشبونة (أشبونة)

بعد سقوط مدينة شنترين اتجهت أنظار النصارى نحو مدينة لشبونة، فاتجهوا إليها بقيادة الفونسو هنريكيز، وطوقها بجميع قواته وكانت المدينة كبيرة السكان وفيها حامية كبيرة، يضاف إلى ذلك أن احد جهاتها متصل مع البحر، وكان هنريكيز قد فرض الحصار عليها من ثلاث جهات إلا من هذه الجهة، لأنه لم يكن يملك أسطولا بحرياً، فكانت هذه الجهة بمثابة منفذ لسكان المدينة، وكاد البرتغاليون يفقدون الأمل في فتح هذه المدينة، إلا أن الحظ ساعدهم، وذلك بأن رست في هذا الوقت بالذات عند مصب نهر دويرة، ما يقارب مئتا سفينة من سفن الصليبيين، مابين إنجليزية وهولنديه وألمانية، للتزود بالماء العذب، وأرغمت على البقاء في مراسيها نظراً لاضطراب الريح، ففاوضهم الفونسو ووعدهم بالغنائم الكثيرة، وبالواجب الديني المتضمن قتال المسلمين وإخراجهم، فاستجابوا لطلبة وسارت سفنهم بقيادة الكونت (أرنولف فون أرشوت) الهولندي إلى مياه لشبونة، واضطرتهم الأجواء السيئة مرة أخرى إلى البقاء قبالة شاطئ المدينة وبالتالي توثيق الحصار عليها من هذه الجهة، فقطعت الإمدادات عن سكان المدينة، ورغم دفاع أبنائها الباسل، فقد تمكنت القوات البرتغالية والصليبية المشتركة من أخذ المدينة المحاصرة، وسلم المحاصرون المدينة مقابل حصولهم على الأمان دون أسلحتهم وأموالهم، واستمر حصار لشبونة هذه أربعة أشهر، وكان سقوطها في 542هـ / 1147م، واقتسم البرتغاليون والصليبيون غنائم المدينة، وكان من نتائج سقوط هذه المدينة أن سيطرت البرتغال على نهر التاجه وانتزاعه من يد المسلمين (Ashbakh, 1958) وأصبحت هذه المدينة عاصمة البرتغال منذ تاريخ سقوطها (al-Amaeerah, 1999).

ج. مدينة يابره

قبل سقوط مدينة يابره، سقطت عدد من الحصون والمدن مثل باجه وترجاله على يد مغامر برتغالي هو (جيرالدو سم بافور)[3] (al-Amaeerah, 1999)، ثم يابرة. وقد كان هذا الشخص أو كما تسميه المصادر الإسلامية جرانده الجليقي يعمل لحسابه الخاص مع مجموعة من فرسانة، ويفاجى المسلمون في مدنهم وقلاعهم، ويبيعها لملوك النصارى بعد الاستيلاء عليها، كما فعل في مدنية يابره التي باعها للنصارى (Ibn Sahib al-Sala, 1979).

بالنسبة لباقي مدن الثغر الأدنى يمكن القول إن هذه المدينة تعرضت مبكرا لغزوات النصارى الذين حاولوا الاستيلاء عليها. ففي سنة 301هـ /914م، حاصر أمير جيليقية أردون الثاني بن الفونسو الثالث، مدينة يابره، وتحصن المسلمون بقيادة أميرهم من قبل الأمويون، مروان بن عبد الملك بن أحمد، داخل المدينة لعدم مقدرتهم على مواجهة جيشه الجرار، فحاصرها أردون من جميع الجهات، واستطاع بعض جنود النصارى التسلق إلى أعلى السور عن طريق أكوام من الزبالة ترتفع ارتفاع متساوياً مع ارتفاع السور، وكان أهل المدينة يلقونها وهم بداخلها فتراكمت هكذا مع الأيام، واستطاع هولاء الجنود فتح ثغرة لبقية الجيش النصراني فدخل المدينة، ولكن سكانها استطاعوا رد الخطر وهزموا النصارى وأخرجوهم من مدينتهم (al-Amaeerah, 1999). على أثر هذه الهزيمة صمم أردون على دخول المدينة، فأعاد تنظيم قواته، والتحم مع المسلمين في معركة أخرى انتهت بهزيمة المسلمين وقتلهم ودخلت الجيوش النصرانية المدنية وعاثت فيها فساداً ودماراً سنة 301هـ / 914م، وقاموا بسبي حوالي أربعة

[3] تذكره المصادر الإسلامية باسم (جرانده الجليقي) وتسمية الرواية المسيحية اسم جرانده الباسل، ويسميه البرتغاليون السيد الكمبطور. انظر العماير، مراحل، حاشية 5، ص ٢٩٩.

آلاف من أهل المدينة، وقتل داخلها أكثر من سبعمائة رجل بما حاكمها مروان بن عبد الملك، وقرر أردون بعدها الرحيل إلى جيليقية، دون أن يضم المدينة إلى أقاربه لعدة أسباب هي: أن الأوضاع في شمالي البلاد كانت تستدعي رجوعه إليها، أيضا وجود عدد كبير من المدن والحصون التي تركها خلفه وتشكل خطرا عليه، بالإضافة إلى أن قوة المسلمين في شمالي شبه الجزيرة كانت تفوق قوة النصارى في تلك الفترة (al-Amaeerah, 1999).

بعد خروجه منها، عادت إلى الحكم الإسلامي فترة زمنية أخرى تجاوزت المئتين والستين عاما، خضعت خلالها لحكم الخلفاء الأمويين، ثم لحكم بني الأفطس في مملكة بطليوس، ثم لحكم المرابطين (al-Amaeerah, 1999).

سقطت هذه المدينة نهائياً في يد النصارى عام 560هـ / 1165م، على يد السيد الكمبيطور (جراندة الجليقي) الذي باغتها بقواته، بعد إسقاطه لمدينة ترجاله، وباع المدينة إلى ملك البرتغال الفونسو هنريكيز الذي كان يخطط للاستيلاء على هذه المدن من الموحدين (Ibn Sahib al-Sala, 1979)، وتابع السيد الكمبيطور إسقاطه لبعض المدن والحصون مثل: مدينة قاصرش، وحصن منتانجش، وحصن شيربه، وحصن جلمانيه (Salmaa, n.d.).

د. مدينة مارده

ما يميز سقوط هذه المدنية أنها سقطت على يد الفونسو التاسع ملك ليون على خلاف المدن السابقة التي استولى عليها، وذلك لأن مملكة البرتغال في هذه الفترة أصبحت خاضعة لحكم ليون بحكم وصية الفونسو ريموندیس القيصر (1002 - 1052 / 1109 - 1157م) حيث أوصى لولده الأصغر فرديناد بمملكة ليون واستراماديوره وجيليقة والإشراف على مملكة البرتغال (al-Amaeerah, 1999).

انتهز الفونسو التاسع ظروف الأندلس في هذه الفترة، وسار بقواته لحصار مدينة مارده، وخرج لقتاله محمد بن يوسف بن هود حاكم المنطقة للموحدين، وهزم ابن هود في معركة جرت بينهما قرب حصن الحنش، انتهت بهزيمة ابن هود، فعاد الفونسو إلى المدينة ودخلها سنة 1927 / 1230م (al-Amaeerah, 1999).

هـ. مدينة بطليوس قاعدة الثغر

كانت مدينة بطليوس تمثل مركزاً وقاعدة عسكرية تخرج منها الحملات الجهادية تجاه الشمال، إلى أراضي مملكة البرتغال، لذلك أراد الفونسو هنريكيز الذي كان يعتبرها من أملاكه أن يضمها إلى مملكته، وكانت المحاولة الأولى للاستيلاء على المدينة سنة 556هـ /1161م، إلا أن المسلمين استعادوها على الفور (al-Amaeerah, 1999).

وفي عام 564هـ / 1168م، سار الفونسو هنريكيز للاستيلاء على مدينة بطليوس، وحاصرها (Ashbakh, 1958). وكان الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن قد جهز جيشا بقيادة الشيخ أبي حفص (عمر بن يحي الهنتاني)، لنصرة المسلمين المحاصرين في قصبة بطليوس، وأبعاد خطر الفونسو هنريكيز، فلما وصل هذا الجيش إلى اشبيلية، وصلت الأنباء بقدوم حليف غير متوقع، هو فرديناند الثاني صاحب مملكة ليون (Ibn Sahib al-Sala, 1979). فلم يكن قدومه لمساعدة الفونسو هنريكيز على إسقاط المدينة وانتزاعها من المسلمين، بل نجده على العكس تماما، يقدم خدمة غير متوقعة، فهو يسير بجيشه لرفع الحصار عن مسلمي بطليوس وإنقاذ المدينة.

والسبب من موقف فرديناند هذا يعود إلى أنه كان قد حظر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح أي منطقة من أراضيها .(Ashbakh, 1958) كما أن أمير البرتغال كان خاضعاً لحكمه فلا يحق له التوسع إلا بعد استشارته (al-Amaeerah, 1999).

وعندما وصل جيش فرديناند إلى مقربة من بطليوس، أرسل اليه عمر بن تيمصلت رسولا، يخبره أنه أتى لإنقاذهم، وليضعوا خطة مشتركة لدحر قوات الفونسو هنريكيز، ففتح المسلمون بابا سرياً من جهة خفية من السور لا يعلمها النصارى أصحاب الفونسو هنريكيز، ويتمكن جنود فرديناد دخول القصبة من هذا الباب، فتقدمت جيوش فرديناد للوصول إلى الباب، وفي تقدمها اشتبكت مع الجيوش البرتغالية، مما زاد من طمأنينة المسلمين تجاه نوايا فرديناند، وفتحوا له الباب السري، ودخلت جيوشه منه إلى باب آخر من أبواب المدينة الداخلية ففتحوه وادخلوا منه جيش فرديناند، فاتحد جيش الموحدين مع الجيش القشتالي ضد الجيش البرتغالي، فدارت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة الفونسو هنريكيز، وفر مدبراً مهزوماً، وكان قد ارتطم أثناء فراره بباب المدينة فاصيب بقدمه اليمني وكسرت فخذه، فحمله بعض جنوده معهم، فاتبعه جنود فرديناند، وقبضوا عليه واستاقوه أسيرا إليه وقيد بالحديد. ثم أطلق سراحه برغبة النصارى، فعاد إلى قلمرية مهزوماً ذميما (Ibn Sahib al-Sala, 1979).

وكان فرديناند قد أبدى شهامته وكرمه في معاملته لأسيره الفونسو هنريكيز فأمر أطباءه أن يعالجوه بمنتهى العناية، وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية، وكان يجلسه إلى جانبه، ومع أن الملك الأسير كان على استعداد لأن يعترف بالخضوع لملك ليون وأداء الجزية افتداء لحريته، إلا أن فرديناند اكتفى بأن يتعهد الفونسو هزيكيز برد الأماكن والأراضي التي انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها (Ashbakh, 1958).

أما فرديناند، فقد بانت نواياه الحقيقية بعد رحيل البرتغاليين عن بطليوس إذ سرعان ما حاصر المدينة، فأيقن المسلمون أنهم عاجزون عن الوقوف في وجهه، وآثروا أن يهادنوه ويقطعوا له عهد الخضوع، فلما قدموا إليه طاعتهم وخضوعهم، ارتد عائدا إلى مملكته، ولكنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلمي بطليوس، ذلك أنه لم يمض وقت طويل حتى ثارت المدينة، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدين، وغدت بقلعتها المنيعة قاعدة لغارات الموحدين على أراضي النصارى في الشمال (Ashbakh, 1958). وفي نفس العام 564هـ، عين الحافظ الأسني أبو يحيى الهنتاني على مدينة بطليوس، وسار إليها مع جماعة من الجنود الموحدين والأندلسيين، وعمل على تحصين قصبة بطليوس، واصطدم أكثر من مرة مع السيد الكمبيطور (جرانده الجليقي)، وكان الكمبيطور متحصنا بحصن جلمانيه، واستطاع أبو يحيى الهنتاني الدفاع عن المدنية وبقي على ذلك شهورا، ولكن الكمبيطور لجأ إلى الحيلة فوضع كمينا من نصارى شنترين وبعض اتباعه في منطقة على مقربة من بطليوس بينما زحف بمن معه من الجنود إلى بطليوس، فخرج الحافظ أبو يحيى بجنوده لقتاله، فتظاهر الكمبيطور بالخوف والرعب وفر متراجعا، فاستطاع سحب المسلمين إلى موقع الكمين، فانهزم المسلمون وأسر جماعه من المسلمين افتداهم الوالي أبو يحيى بالأموال (Ibn Sahib al-Sala, 1979).

وفي شهر رجب من سنة 565هـ، ضرب السيد الكمبيطور الحصار على مدينة بطليوس، فضعفت المدينة وقلت فيها المؤن والأقوات، لذلك قام أهل اشبيلية المسلمون بتجهيز ما يقارب خمسمائة دابة تحمل المؤن والأسلحة والجنود، وذلك لمساعدة أخوانهم المحاصرين في بطليوس، وترأس قافلة المساعدات الحافظ أبو يحيى زكريا بن علي، فلما وصل إلى مقربة من بطليوس خرج الكمبيطور بجنوده ومعه نصارى شنترين، والتقى الطرفان في معركة حامية انتهت بهزيمة المسلمين، وقتلوا وأسروا وانتهبت المؤن من المسلمين (Ibn Sahib al-Sala, 1979).

ولكن السيد الكمبيطور لم يستطع دخول المدينة، وذلك بسبب انشغاله ببعض النزاعات مع الممالك النصرانية الأخرى وخاصة قشتالة وليون، وبقيت هذه المدينة محتفظة بهويتها الإسلامية تحت حكم الموحدين حتى ضعفت دولتهم بسبب قيام النزاعات والخلافات الداخلية، فاستغل الفونسو التاسع ملك قشتالة وليون هذا الظرف، و تمكن من استرداد مدينة ماردة، ثم توجه مباشرة إلى مدينة بطليوس ودخلها في نفس السنة التي دخل بها مدينة ماردة وهي سنة 627هـ / 1230م (al-Amaeerah, 1999.).وهكذا تم للنصارى الاستيلاء على قاعدة الثغر الأدني بطليوس وتابعوا توسعهم إلى بقية مدن الجنوب، فعمل سانشو الثاني ملك البرتغال على الاستيلاء على معظم ولاية الغرب، واستولى على عدد من القلاع الواقعة على ضفة وادي يانه اليسرى مثل مورة وصربا وأيامونتي، وتابع اخوه الفونسو الثالث ملك البرتغال التقدم، فبدأ بحصار قلعة فارو الواقعة بين شلب وطبيرة، فجنح حاكمها إلى تسليم المدينة (647هـ – 1249م)، وتلا سقوطها، سقوط المدن المجاورة بسهولة، وكانت البفيره قد أخذت قبل ذلك بقليل، ثم سقطت مدينة لوله وما جاورها، فلم يأت منتصف سنة 1250هـ / 648م، حتى سقطت غرب الأندلس كلها بأيدي البرتغاليين (Ashbakh, 1958).

الخاتمة

من خلال الدراسة السابقة تم التوصل إلى النتائج الآتية:

أ. الموقع الجغرافي الحصين والمهم الذي كانت تتمتع به مدن الثغر الأدنى الأندلسي.

ب. توق النصارى وبخاصة مملكة البرتغال للاستيلاء مدن الثغر الأدنى الأندلسي.

ج. لاحظنا دور حكام الثغر المسلمين في محاولة حمايته من اعتداءات النصارى، في عهد مملكة بني الأفطس.

د. دور المرابطين والموحدين في الدفاع عن مدن الثغر الأدنى الأندلسي. واستعادة ما سقط في أيدي النصارى من المدن والحصون، وتأجيل سقوطه المحتوم.

هـ. لاحظنا في المصادر الخلافات بين مملكتي البرتغال وليون على بعض المناطق التي ترى كل منها أنها ضمن نطاقها التوسعي.

المصادر والمراجع

al-Amayreh, N. (1999). *The Stages of the Fall of the Andalusian Frontiers in the Hands of the Spanish.* Amman.

Anat, A. (1964). *The Era of the Almoravids and Almohads in Morocco and Andalusia*. al-Qahirah: Composition and Translation Committee Press.

Ashbakh, Youssef. (1958). *History of Andalusia during the Era of the Almoravids and Almohads*. Anan, Muhammad (trans.). 2nd ed. Egypt: al-Khanji Foundation.

Baydoun, I. (n.d.). *The Arab State in Spain from the Conquest until the Fall of the Caliphate*. Bayrut: Dar al-Nahdah al-‘Arabiyyah.

al-Hajjaj, T. (2005). *Pages from the History of Andalusian Cities.* Amman: Dar al-Diyaa Publishing House.

al-Hajjaj, Tawfiq Muhammad ‘Ali. (n.d.). *Pages from the History of the Andalusian Cities*. Amman: Dar al-Diyaa Publishing House.

al-Hamwi, A. (626H). *The Dictionary of Countries*. Vol. 1. Bayrut: International Book House.

al-Humairi, A. (710H). *al-Rawd al-Matar in the News of al-Aqtar*. Abbas, Ihsan (ed.). 2nd ed. Banan Library.

Ibn al-Athir, Abu al-Hasan ‘Ali ibn Muhammad. (1979). *al-Kamil fi al-Tarikh*. Vol. IX. Bayrut: Dar Sader.

Ibn al-Kardabus, I. (1966). *History of Andalusia*. al-Abadi, Ahmed Mukhtar (ed.). Madrid: Press of the Institute of Islamic Studies in Madrid.

Ibn al-Khatib, I. (1956). *Lisan al-Din Muhammad al-Tilmisani, Islamic Spanish History, or the book ‘A’mal al-Alam fi Who was Allegiance before the Pens of the Kings of Islam*. Provencal, Levi (ed.). 2nd ed. Bayrut: Dar al-Makhshuf.

Ibn Idhari, Abu al-‘Abbas Ahmad ibn Muhammad. (1983). *al-Bayan al-Mughrib fi Akhbar al-Andalus and al-Maghrib*. Vol. 3. Transformations, J.S. & Provença, L. 3rd ed. Bayrut: Dar al-Thaqafah.

Ibn Sahib al-Sala, A. (1979). *The History of Manifestation in the Imamate of the Oppressed, that God Made Them Imams and Made Them among the Heirs*. Iraq: Ministry of Culture and Arts.

al-Idrisi, A. (1980). *Nuzhat al-Mushtaq fi Intkhiraq al-Afaaq*. Bayrut: The World of Books.

al-Maqqari, A. (1988). *Nafh al-Tib from the Moist Branch of Andalusia*. Abbas, Ihsan (ed.). Vol. 1. Bayrut: Dar Sader.

al-Marrakushi, A. (n.d.). *al-Mujib fi Takhlis Akhbar al-Gharb*. Azab, Muhammad Zainhum (ed.). Amman: Dar al-Ferjani for Publishing.

Salem, A. (2005). *The History of Islamic Badajoz and Western al-Andalus in the Islamic Era.* Vol. 1. Alexandria: University Youth Foundation.

Salmah, K. (n.d.). *The Arab-Islamic Civilization in Andalusia*. Vol. 1. Center for Arab Unity Studies.

al-Samarra‘i, I. (1985). *al-Morabiteen Relations with the Spanish Kingdoms in Andalusia and Islamic Countries*. Ministry of Culture and Information, Iraq.

al-Samarra‘i, K. (n.d.). *History and Civilization of the Arabs in Andalusia*. Ministry of Higher Education and Scientific Research, University of Mosul.

Sheikha, J. (2001). The Emerging Portuguese Kingdom and its Relationship to the Existing Almohad Caliphate through Literary Sources. *Andalusian Studies Journal. 22*(1), 1-20.

al-Shantarini, Bassam. (542H). *al-Dhakhira in the Beauties of al-Jazeera*. Vol. 2. Abbas, Ihsan (ed.). Bayrut: Dar al-Thaqafa.

Watt, M. (1998). *The History of Islamic Spain*. Al-Masri, Muhammad Reda (trans.). 2nd ed. Bayrut: Publications Publishing Company.